قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م(*)

سمير عبده

كان ابن منظور في كتابه (لسان العرب) خير من عرّف البدو (Nomads) فهو يقول في معنى (بدا) بدا الشيء يبدو بدواً وبُدواً، ظهر. . وابتدا، والبداوة خلاف الحضر، وبدا القوم بدواً خرجوا إلى باديتهم. وقيل للبادية بادية لبروزها وظهورها، والمبدى خلاف المحضر. . هو الذي يكون في البادية ومسكنه المضارب والخيام، وهو غير مقيم في موضعه بخلاف الجار المقيم في المدن. والمعنى العام للكلمتين العربية والأوروبية للبدو هو التجوال وعدم السكن في بيوت ثابتة، كالغجر وجامعي الطعام والرعاة، بيد أن الكلمة عني بها البدو الرعاة.

وقد أولى الكثير من الدارسين البدو اهتماماتهم، فمن القديم كان اهتمام المسعودي في (مروج الذهب) وابن خلدون (في مقدمته) بهم. وفي القرن الماضي والحاضر كانت دراسات المستشرقين غنية بذلك، دون الوقوف عند أهدافها. وتأتي أهمية كتاب (قبائل بدو الفرات) من أن مؤلفته آن بلنت عرضت فيه وصفاً شيقاً لرحلة قامت بها مع زوجها إلى سورية وبلاد الرافدين للتعرف على قبائل بدو الفرات، منطلقةً من الإسكندرون إلى حلب والرقة ودير الزور ثم بغداد وشمالها إلى معاقل عشائر الشمرثم الرجوع إلى دير الزور فتدمر حيث عشائر العنزة فالوصول

(*) كتاب للرحالة البريطانية الليدي آن بلنت، ترجمة أسعد الفارس ونضال خضر معيوف ـ نشر دار الملاح للطباعة والنشر ـ دمشق ١٩٩١، ٤٧٢ صفحة من الحجم الكبير.

إلى دمشق من ناحية غربها، فهي قد وصلتها قادمةً من دمر نزولاً إلى دمشق بعكس الاتجاه الذي سارت عليه.

تحمل آن بلنت كنية زوجها (بلنت ولفرد سكاون) وقد كان من المثقفين والكتاب السياسيين الانكليز، وهو ودودٌ تجاه الإسلام والقوميات الشرقية. ولد كاثوليكياً ولكنه مال إلى الإسلام، وكان يرى أن العرب يمثلون الريف والفروسية. فالعرب في نظره هم النبلاء والكرماء الذين يشمخون بأثوابهم الفضفاضة على خيولهم المطهمة. والجدير بالذكر أن الشيخ محمد عبده حل ضيفاً في منزل الليدي بلنت وزوجها ولفرد في بريطانيا بعد هروبه من مصر، كما أنهما استنكرا حادثة دنشواي والمحاكمات الصورية والإعدامات التي تلتها، ومن أهم كتب ولفرد كتاب (التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر)، ولليدي بلنت عدا كتابها الذي نقدمه، كتاب عنونته بـ (حج إلى نجد) صدرت ترجمته في السعودية عام ١٩٦٧.

إذا كان بعض المستشرقين قصدوا الشرق للتحامل والتجني على شعوب المنطقة أو أن يجسدوا فكرة العصور الوسطى عن الشرق في أذهان الغربيين مثل (بورتون) و(لورنس) فإن ولفرد بلنت يكتب في مقدمته لكتاب زوجته جملةً نبقى حائرين تجاه مراميها، فهو يقول (إن وادي الفرات معروف لدى كل الناس جميعاً كطريق بري مستقبلي للهند، وندرك على أعلى المستويات أن امتلاكه من قبل دولة صديقة هو أمر حيوي للمصالح البريطانية). ألا يعني هذا أنه يترتب على الرحالة كتابة مشاهداته وتبويب الأخبار التي معها في رحلته وتقديمها جاهزة لأبناء بلده وساستهم ومفكريهم الذين يودون غزو البلدان المستطلعة، أو تمتين الروابط معها.

وصف للرحلة

إذن أكثر شيء جعل هذين الزوجين يقومان برحلتهما السندبادية هو أن وادي الفرات كان يعتبر غامضاً في ذهن الشعب البريطاني أكثر من أي وادٍ آخر يماثله من حيث الأهمية في العالم القديم. ولهذا تركا انكلترا في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٧٧ عاقدين العزم على زيارة بغداد وإمضاء الشتاء في بعض الأصقاع

الآسيوية، فعبرا إلى أسبانيا ومنها إلى الغرب ومنه إلى مصر وسورية عن طريق الإسكندرون، ولكن ماذا وجدا في هذه المدينة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحويل التجارة الانكليزية مع الهند عنها. لقد كانت مجموعةً من الأكواخ المتناثرة على شاطىء البحر عند أقدام جبال الأمانوس. وقد حل هذان الرحالتان ضيوفاً على نائب القنصل البريطاني، حيث أمن لهم بعدها موكباً ضمّ الكثير من رفاق السفر من راكبي البغال والحمير والخيل والجمال وبعض الرجال. وفي الطريق توقفوا في مدينة بيلان، وبعدها ساروا فوجدوا أنفسهم في قافلة قادمة من حلب فيها جنود في طريقهم إلى الحرب، بعضهم في ألبسة نظامية وبعضهم رُبطوا بأصفاد خشبية، وتبين لهم أن هؤلاء من الفارين من الخدمة العسكرية، ألقي القبض عليهم ليعادوا إليها من جديد. ووصلت قافلتهم إلى عفرين وكان اليوم الثالث من رحلتهم. وقد هزت الرحّالة آن المشاهد التي رأتها في هذه الأيام الثلاثة فكتبت تقول (إن في سورية ملايين الفدادين من الأرض الزراعية الجيدة والمروية في طقس مناسب، ولكنها تحتاج إلى الفلاحين المهرة لإحيائها).

وبدت لهذه القافلة بلدة خان طوقان وهم في جنوب غرب حلب، وأسرعوا في المسير ليطاردوا مآذن حلب التي شاهدوها قبل خمس ساعات من وصولهم إلى المدينة. وفي هذه المدينة اقتضاهم التحضير لسفرهم التالي شهراً، نزلوا في أثنائها في ضيافة القنصل البريطاني السيد (سكين) الذي رافقهم في سفرتهم التالية إلى دير الزور.

كان سكين خبيراً بشؤون القبائل العربية، ويعرف كيف يقوّم لكل قبيلة قوتها ومن هم خصومها، وكان لشرحه الذي لم ينقطع أن وفر زاداً كبيراً للزوجين بلنت في مهمتهما.

وتتحدث المؤلفة بكثير من الإسهاب عن الحروب التي تقوم في البادية السورية بين العشائر. ومن المعروف أنه طيلة حكم العثمانيين لسورية ساروا على مبدأ ثابت يتم بموجبه إبقاء القبائل البدوية مشغولةً في حروب متواصلة، وبهذه الطريقة تكون الحكومة آمنةً من خطر التحرش والتهديد المتمثل في قوة هذه القبائل غير المستقرة، وفي ذلك ضمان لعزل مقاطعات المدن عن البادية.

وكان التاسع من كانون الثاني عام ١٨٧٨ هو يوم انطلاق القافلة، فكانت الجبول هي المرحلة الأولى من الرحلة على بعد خمسة عشر ميلاً من حلب. وفي اليوم التالي مروا بقرى كانت حالتها في منتهى البؤس والقذارة إلى أن وصلوا إلى مضارب الهنادي حيث كانت قبيلة الرولة قد وهزمت.

وفي طريقهم مروا بقبر أحد زعماء شمر ويدعى عبد العزيز الذي كان قد قُتل في ذلك المكان في معركة مع العنزة منذ عشر سنوات إلى أن وصلوا إلى مسكنة فالفرات وقد أخذت بهم الطريق فوق برزة صخرية قطعت أنحناء النهر لتربط البادية بالنهر مباشرة فهبطوا منها ثانية إلى السهل بعد أن تمتعوا بمناظر خلابة. وفي اليوم الثاني عشر من كانون الثاني طالعهم منظر جميل بديع لقلعة جعبر ـ الشاهد التاريخي العريق الذي حاصره عام ١١٤٦ عماد الدين الزنكي حاكم الموصل وآغتيل فيها فيما بعد فانسحب منها جيشه.

وتصف آن هذا المكان بأنه غابة كثيفة تشابكت فيه أجمات هائلة من النباتات الشوكية، وبه افترس أسد ضارٍ بدوياً اسمه فوزان، وتشرح نوعية هذا الأسد فتقول إن أسود الفرات هي من الأسود البابلية غير الخطيرة ولكن إذا وجد منها من تذوق لحم البشر فسيعتاد هذه العادة ويهاجم البشر باستمرار تماماً كما تفعل النمور الهندية في الشرق.

وتراءت لها على الطريق الآثار الرومانية، ووجدت هناك مساكن العفادلة، وهم قوم شجعان من قبيلة مغمورة اشتهروا في المنطقة باصطياد السباع. وحين وصلت إلى الرقة رأت أن كل الآثار في المنطقة تتهدم من القاعدة كأشجار نخرت من الجذور. وفي الثامن عشر من كانون الثاني وصلت آن إلى دير الزور، وحلت ضيفة هناك على سعادة الوالي حسين باشا.

وبعد لأي، ولأن الهدف كان زيارة قبيلة العنزة، وحيث إنها رحلت إلى الجنوب، فكان الاقتراح أن تقوم بزيارةٍ إلى قبيلة شمر في العراق. وكان أن وصلت في الخامس والعشرين من كانون الثاني قافلة من حلب تحرسها مجموعة من الجند في طريقها إلى بغداد فانضمت إليها، بحيث صار لزاماً على الزوجين بلنت

أن يسلكا طريقاً ملتوية طويلة ليصلا إلى بغداد ومنها ينطلقان في اتجاه يبعد أكثر من ثلاثمائة ميل عن الاتجاه الذي كانا يودان السير فيه. وأخذت القافلة طريقها إلى الميادين والبوكمال والصالحية وحديثة وهيت والرمادي والذيبان. وفي الحادي عشر من شباط وصلت القافلة إلى بغداد ورأتها المؤلفة مدينة رائعة إذا ما قورنت بدمشق وحلب.

وقصدت القافلة أن تصل من بغداد إلى مضارب قبيلة شمر ولكن كان يتعذر من يعرف الطريق أكثر من أميال قليلة خارج بغداد. ولكن الشدة تشد من العزائم، وهكذا سارت القافلة إلى خان السوادية على طريق الموصل إلى تكريت وأخذت تقترب من دجلة حيث الأراضي المزروعة، وقابلوا الجبور الذين هم من العشائر التي تنتسب إلى الزبيد ويسكنون في الجزيرة السورية وعلى ضفاف دجلة، وهم يرفدون قبيلة شمر ولا يشكلون قبيلة مقاتلة. وكانت مضارب قبيلة شمر على بعد مسيرة ثلاث ساعات فقط في شرقاط. وهناك بعد أن استوت القافلة في عرين قبائل شمر تقول آن بلنت (لو قدر لي أن أكون واحداً من أبناء صفوق أو تقمصت نفسي شخصية فرحان شيخ قبيلة شمر، لما تخليت عن حياة البادية حتى وإن نصبت باشا، ودفعت لي ثلاثة آلاف جنيه في السنة، ولما تناولت المعول من أجل الفلاحة، ولا حتى من أجل التظاهر ولما طفت بحفنةٍ من الصعاليك لكي يساعدوني بعد التقاطهم من كل المنبوذين في قبائل العرب الوضيعة على نهر دجلة، ولما ركبت خيولاً غير أصيلة، ولما احتفظت (بملا) ديني من الموصل ليعلم أبنائي التركية، وآه وألف مرة ما كنت لأعيش في الشرقاط، وإذا ما تذكرت الأماكن البائسة في العالم، فإني أعتقد أن الشرقاط ستكون أتعسها على الاطلاق، غير أني أعتقد أن إقامة فرحان في هذا المكان ما هي إلا من قبيل التظاهر بين قومه كما يفعل بقية الشيوخ).

ولسوء حظ هذه القافلة فإن فرحان لم يكن في منطقته بل كان يمثله ولده الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره. ولكن آن زارت زوجة فرحان المفضلة، فصال خاتون.

في التاسع من آذار كانت عودة القافلة مروراً بالحضر، بعد أن كان دليلها

من الشمريين. وكادت تضيّع الطريق ولكنها وصلت في الثاني عشر من الشهر ذاته إلى موقع لا يبعد عن الخابور أكثر من ثمانين ميلاً ومرت بالشدادة وتلال جبل سنجار وعبد العزيز (الحسكة في الوقت الحالي)، وقابلت الشيخ فارس شقيق عبدالكريم أحد أبطال شمر المتوفين، وكانت أخلاقه ومعاملته لأبناء قبيلته يحسد عليها، إذ يحترم الطاعنين في السن ذوي التأثير القوي عليه ولا يتظاهر بالتعالي على أقرانه. وتوطدت العلاقة بين الزوجين بلنت وزعماء هذه العشيرة، وتوطدت الصداقة بين آن ووالدة فارس، خاتون عمشة.

في التاسع من آذار غادرت القافلة معسكر شمر، وركب فارس معهم ومعه بعض قومه للمرافقة إلى شاطىء النهر (الخابور)، وردد الناس: قبيلتنا هي قبيلتكم وخيامنا خيامكم. وكان العشرين من آذار هو موعد هبوط القافلة إلى دير الزور مرة ثانية.

حين انطلقت البعثة من حلب رافقها القنصل البريطاني هناك السيد سكين إلى دير الزور، وهناك تابعت القافلة مسيرتها إلى مضارب شمر فيما عاد سكين إلى حلب على أمل أن يلتقيا ثانية في موعد محدد في دير الزور. وها قد عادت البعثة ولم يأتِ سكين. وبعد انتظار طال إلى الرابع والعشرين من آذار غادرت إلى البادية ثانية. كان طريقها هذه المرة إلى تدمر والمرور من خلال القبائل والعشائر، فكان أن مرت على البير (أو البئر) والسخنة، وعرفت على الطريق رَتْلاً من الجمال قادماً من الجنوب يقودهم عرب (البوخميس) وبعد مسيرة يوم كان يقيم (العجاجرة) الخط المتقدم لحماية العنزة، حيث بدأت تظهر تدمر بشكل واضح.

في تدمر نزل أعضاء القافلة ضيوفاً على أحد العشائر، ولحق بهم السيد سكين من دير الزور. وبعد أن التأم الشمل توجهت إلى الحماد يتقدمها العنزي جاسر، وبعد ساعات كانت تمر على قبيلة الفدعان وتتعرف على شيخها جدعان من العنزة حيث استضافهم، وتوجه معهم في الطريق إلى مسافات، وهي من مناطقه، وتصف المؤلفة الكثير من شؤون جدعان: حياته وزوجاته وأولاده وكيف يسيّر قبيلته.

كان السابع من نيسان حين خيمت القافلة في منطقة اسمها البركة، وهي

تبعد ستين ميلاً عن تدمر من جهة الجنوب الشرقي، وبعدها سارت إلى الرولة، وبعد أربعة أيام غادرت بئر السكر واقتربت من عشيرة الشعلان. وفي الرابع عشر وصلت إلى مخيم الرولة، حيث تعرفت آن إلى مشاكل العشائر والخلافات التي تدب بين أبنائها وبين أبناء عمومتهم من العشائر الأخرى، وما يقابل ذلك من قبائل. وتابعت سيرها فمرت في جيرود واتجهت غرباً إلى أن وصلت دمر في غرب دمشق.

لقد أوجزت إلى الآن رحلة الأربعمائة صفحة التي خطتها آن بلنت لرحلتها التاريخية عام ١٨٧٨ إلى قبائل بدو الفرات. فماذا في الكتاب.

في خلاصات التقييم

إذا كنت قد اتبعت السرد المتتابع للرحلة دون أن أخوض في ذكر أسماء الأشخاص من القبائل والعشائر الذين التقتهم أو عرفتهم المؤلفة، حتى أنه من النادر أن تكون قد التقت بشخص دون أن يكون من قبيلة ما، فإن هذه الأسماء تشكل في الواقع معرفة عيانية هامة لهؤلاء الناس، في نمطية حياتهم، ونوعية تفكيرهم، والقوى التي توجههم، والحروب التي تقوم بينهم.. مسبباتها وبواعثها. على أن نفوذ قبيلتي شمر والعنزة وسيطرتهما على القبائل الأخرى في المنطقة التي درستها المؤلفة، لم يكن موضع مناقشة منذ أن ظهرتا على مسرح الأحداث في الجزيرة والشمال. ويمكن أن نعزو ذلك إلى أن حالة القبائل البدوية في بواديها كانت في تفتح مستمر، فتعاقب فصول الخصب وتوالد الجمال بكثرة يجلب لها الثراء العاجل، يضاف إلى ذلك حنكة وشجاعة شيخ القبيلة، لذلك نجد أسهم القبيلة تصعد في بعض الأعوام وتمتلك هذا النفوذ القَبلي، وفي سنة أخرى تهبط لتصعد أسهم الأخرى وهكذا.

هذا النفوذ القبائلي كان محدداً، فالعنزة تمتلك الحماد وشمالاً حتى حلب، أما شمر فكانت سيدة الجزيرة. والحرب بين القبيلتين مستمرة منذ زمن بعيد، تنشط أحياناً وتهدأ في أحيان أخرى بسبب الهدنة، على أن الصلح المطلق لم يعقد

بينهما أبداً. وغارات شمر على العنزة وغارات الثأر التي تقوم بها العنزة لا يمكن أن تعد بسهولة، وتبدأ في كل صيف منذ أن تظهر طيور السنونو في المنطقة في أيار. وكلا القبيلتين لها تاريخ حافل في الصعود والهبوط. فشمر بقيت قوية في أذهان الناس، ويذكرها المعمرون حتى أنها كانت تهدد بغداد بالحصار.

ورغم مرور الوقت على عمل آن بلنت (قبائل بدو الفرات) واستقرار البدو النسبي، فإن تحديث حياتهم لم يمنع عنهم الصلة القبلية، فهي أداة تحركهم الاجتماعي والسياسي. على أن هناك سمات غالبة على القبائل هي أنها حين تكون ذات حياة مزدهرة يكون استقرارها قد تم، بحيث تحيا حياة بدوية خالصة وتكف أذاها عن القبائل الأخرى. وحيثما وجدت الأنعام والجواميس على الفرات تعتبران رمزين ممتازين للسكان المجدين الشرفاء، ولكنهم عرق رعوي بحيث يعيشون مع ماشيتهم على مدار العام في نفس المنطقة جاعلين من أنفسهم رعايا صالحين كما يريد السلطان ويرغب. والحديديون هم أيضاً مثال رائع لما يجب أن يكون عليه البدو الخالصون، إذ لا يربون سوى الأغنام مع جمال معدودة تستعمل في النقل، ولهم سمعة ممتازة من النزاهة والأخلاق الحميدة في البادية.

لقد أغنت رحلة آن بلنت الباحثين في الكثير من الأمور المتعلقة بالحياة المعيشية في سورية وبلاد الرافدين، ولا يمكن تجاهل مكانة هذا الكتاب بين الكتب التي تناولت الحياة البدوية لقبائل الفرات، ورغم ذلك يجب أن لا يصرفنا هذا عن الحقيقة الماثلة وهي أن شمس الحياة البدوية قد مالت نحو المغيب، ولم يعد البدو يعيشون بمعزل عن المجتمعات التي تحيط بهم.

إن الوصف الأخاذ لحياة قبائل بدو الفرات الذي روته المؤلفة يعد من أفضل ما قرأته عن حياة هذه القبائل، ولا يمكن إغفال دور المترجمين اللذين ترجما هذا الكتاب، فهما قد استطاعا أن يفهما عقلية الكاتبة وأن يثبتا أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن بشكل ممتاز، مما جعل من هذا الكتاب يتصدر قائمة أفضل الكتب عن قبائل بدو الفرات.